الأزمة الاقتصادية العالمية
من وجهة نظر إيماننا المسيحي الأرثوذكسي

مكتب الهرطقات والبدع، أبرشية بيريه
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

في الأشهر الأخيرة، ابتُليَت البشرية بأسرها بأزمة اقتصادية غير مسبوقة. في وقت كان فيه الاقتصاد الرأسمالي العالمي منتصراً، والعالم ينتظر نتائج الاقتصاد "الحر" التي ستجلب للبشرية الرخاء والنعيم المرغوبَين، فإذ بكل شيء ينهار فجأة مثلَ برجٍ ورقي.

في البداية، جاءت جائحة الفيروس التاجي الرهيب "من العدم" لتمزيق النسيج الاجتماعي وضرب الاقتصاد العالمي بشدة. ثم جاءت حرب الأشقاء في أوكرانيا الشهيدة، لإنهاء البشرية وتقريبها من دمار كارثةٍ نووية محتملة! شبح الركود العالمي يلوح في أفق العالم ومعه شبح المجاعة، ويغمر القلق الملايين من الناس الذين يعانون من الخوف من البطالة وعدم اليقين والموت بسبب الجوع.

بحسب تحليلات الخبراء، فإن أزمة الطاقة هي السبب الرئيسي للأزمة الاقتصادية. لقد أدى نقص الغاز والكهرباء في أوروبا الغربية إلى إغلاق آلاف الشركات، في حين أن البطالة آخذة في التضاعف، والتضخم آخذ في الارتفاع. لقد أدى نقص الكهرباء والغاز الطبيعي ثلاث أو أربع مرات إلى اليأس لدى المواطنين والشركات الأوروبية، في حين يُتوقع أن يكون الشتاء القادم أسوأ من شتاءات الحرب العالمية الثانية. بشكل عام، يُنظَر إلى الوضع كأكثر من مأساوي، فيما يؤكد لنا الخبراء أن الأسوأ لم يأتِ بعد.

نحن، كاتبو هذا التقرير، لسنا سياسيين ولا اقتصاديين ولا خبراء دوليين لتحليل العوامل السياسية والاقتصادية والجيواستراتيجية للأزمة غير المسبوقة، ولا نقوم بتنبؤات عشوائية حول المستقبل.

في السطور التالية سنحاول بإيجاز شديد إبراز بُعدٍ آخر للأزمة الاقتصادية الحديثة غير المسبوقة، يختلف عن بُعد السياسيين والاقتصاديين. سنحاول تناول الأمر من وجهة نظر إيماننا المسيحي الأرثوذكسي، الذي لا يقتصر فقط على "واجباتنا الدينية"، كما يعلّم الهراطقة، بل يشمل حياتنا كلها كمسيحيين أرثوذكسيين. وهذا لأننا نعتقد أنه إذا طَبّقت الأمم والشعوب تعليمَ كنيستنا الاجتماعي على نطاق واسع، فإن معظم المشاكل الاجتماعية ستُحَلّ، كالفقر والبطالة واستغلال الضعفاء والظلم الاجتماعي وتراكم الثروة في أيدي قلة معينة، إلخ.

بحسب تعليم كنيستنا، إن وجود الخطيئة في العالم هو البداية والسبب الأصلي لكل الشرور (وحتى الموت) التي عذّبت وتعذب الجنس البشري من الماضي البعيد إلى اليوم. لقد خلق خالق العالم، إله المحبة والكمال، خليقته "حسنة جداً" (تكوين ١:٣١)، بدون عيوب، ووهبها القوى والإمكانيات حتى لا يكون هناك تنافر.

أما أنبل مخلوقاته، الإنسان، فقد خُلق ليعيش في الفردوس ويتمتع بعطايا الله التي لا تنضب. خلق الله الزوجَين البشريين الأولين، آدم وحواء على صورته، وقد ارتقوا تدريجياً من الصورة إلى المثال. ومع ذلك، فقد

كان الشرط الضروري بالنسبة لهما لتحقيق غايتهما (الوصول إلى التألّه) هو الطاعة للوصية المحددة التي تلقياها من الله، والتي من خلالها يمكنهما وحدهما (بظن في غلط هون، بركي بالأصل: بالطاعة وحدها؟) أن يكونا في شركة محبة مستمرة مع الله وبينهما.

وعليه، كل إنسان يأتي إلى هذا العالم مدعو في فضاء الكنيسة إلى تحقيق مصيره بطاعة إرادة الله، بحيث يكون بطاعته ومشاركته في أسرار الكنيسة في شركة محبة دائمة مع الله، ولكن أيضاً مع أعضاء الكنيسة الآخرين.

الأشخاص البشريون، كأعضاء في الكنيسة، مدعوون إلى نبذ أنانيتهم وتمركزهم حول الذات، وأن يصبحوا إخوة في ما بينهم، ويشعروا بأعضاء نفس الجسد [أي الكنيسة، جسد المسيح، وأبناؤها هم الأعضاء]، والارتقاء إلى صورة حقيقية للمجتمع الفائق الكمال، مجتمع الأقانيم الإلهية في الثالوث الأقدس. لم يعد الإنسان الجديد والمتجدد في المسيح هو الكائن السياسي الأرسطي [الذي حكى عنه أرسطو]، بل هو الصورة اللاهوتية المواهبية للإله الثالوث المقدس. تتحول علاقة الإنسان إلى علاقة محبة كانعكاس لمحبة الأقانيم الإلهية في الثالوث الأقدس.

يشعر الإنسان الجديد في المسيح، إذ ينبذ محبته لذاته، أن كل خيرات العالم المحيط به هي هدايا كاملة ومُعطاة بغنى للإنسان "من أبي الأنوار" (يعقوب ١٧:١)، للجميع، للاستمتاع على قدم المساواة، الشمس والمطر والماء وخصوبة الأرض والموارد والهيدروكربونات الموجودة تحت البحار والنباتات والحيوانات، إلخ.، موجودة بالتساوي للجميع، "العادل والظالم" (متى ٤٥:٥)، وليس من حق أي مرءٍ أن يغتصبها لنفسه بأنانية. الأشخاص البشريون هم متلقّون إفخارستياً لهذه المواهب الجماعية وليسوا ملوكاً حاكمين.

ولكن عندما يرفض الإنسان الإيمان بالمسيح، أو يبتعد عن حياة الكنيسة، فإنه يقع من جديد في شرك أنانيته وتمركزه حول ذاته. إنهم يعلَقون في شباك هوى محبة الذات والطمع الذي هو بحسب الرسول "أصل كل الشرور" (١ تيموثايوس ١٠:٦). أصبح الجشع بمرور الوقت شغفاً غير قابل للشفاء وسبباً جذرياً للشر في المجتمعات المتقهقرة. في الواقع، لم يعد الجشع يكتفي بالسلع المادية، بل تمدد أيضاً إلى الأشخاص، وبالتالي نشأت مؤسسة العبودية المخزية كانحطاط نهائي للإنسان الساقط.

جاء ابن الله وكلمته إلى العالم كمخلصه الوحيد والقادر. صار إنساناً، من نوع الإنسان الجديد الفائق الكمال، ليعيد مخلوقه إلى حالته التي كانت قبل السقوط. لقد جاء لإلغاء الخطيئة وتدمير مملكة إبليس وأعماله الخارجة عن القانون على الأرض، لإنقاذ الإنسان عالمياً (روحياً ، عقلياً ، جسدياً)، لتغيير الهياكل الاجتماعية الواهية وغير الإنسانية التي أنشأها المجتمع الانتقالي الشيطاني، وأحدُها الظلم الاجتماعي.

إن مجمل التعليم الإلهي يشير إلى مبدأ الأخوّة العامة بين البشر كنتيجة لأبوّة الله. وبالتالي، فإن الناس، كخليقة الله وكأعضاء في الكنيسة، هم إخوة بعضهم لبعض. كما هو الحال في الأسرة الطبيعية الصالحة، يتمتع جميع الأطفال على قدم المساواة ودون تمييز برعاية الأب، لذلك في الأخوَّة العالمية يجب أن يتمتع الأشخاص موضوعياً بنفس القدر بعطايا الآب السماوي. في مجتمع الكنيسة الإلهي الإنساني، كل شيء ملك

للجميع. والدليل على ذلك هو تطبيق الملكية المشتركة على الأشياء المادية في المجتمعات المسيحية الأولى، وحتى تجربة الملكية المشتركة في أديرتنا الأرثوذكسية الجماعية لمدة ألفي عام حتى اليوم. إن التعاطي الشائع مع الماديات في المجتمعات والأديرة المسيحية، هو بطريقةٍ ما نموذج للتعايش الاجتماعي في جميع المجتمعات البشرية عبر القرون.

بحسب تعاليم آبائنا القديسين، فإن مراكمة الخيرات المادية الفارغة هو حماقة وعلامة على الانحطاط الأخلاقي والروحي. من يملك أكثر مما يحتاج (الغني)، يشبه اللص، لأن ما هو فائض لديه ينقص عند غيره. يرِد التأكيد على هذه الحقيقة العظيمة بشكل خاص في مثل الغني ولعازر كما في مثل الغني الجاهل. يذكر باسيليوس الكبير في إحدى عظاته في القرن السادس (EPE 4،274، PG 29،153A) أن "الطمّاع الذي يستولي على ثروة الفقراء لا يختلف بأي حال عن السمكة الكبيرة التي تلتهم الأصغر منها" . لقد عاش هذا القديس العظيم حقاً حياته ببساطة، في قسوة وفقر، وكان أمام عينيه مثال ربنا الذي عاش على الأرض كرجل فقير، ليس له "مكان يسند إليه رأسه" (متى ٨:٢٠)، وكما يقول الرسول بولس بكلام موحى به من الله: "فَإِنْ كَانَ لَنَا قُوتٌ وَكِسْوَةٌ، فَلْنَكْتَفِ بِهِمَا" (١ تيموثاوس ٦:٨). كما كان سلوك جميع آباء كنيستنا القديسين الذين عاشوا في الحياة الحاضرة في فقر وتقشف وزهد، متجنبين كل أنواع الرفاهية والإنفاق غير الضروري، وبذلك كانوا قدوة للتقشف وتجنب كل أنواع الترف عند كلٍ من الإكليروس وشعب الله الأمين. وهكذا اكتسبت حججهم النارية ضد كل أنواع الهدر والمعيشةِ الفاخرة هيبةً ووزناً، لأنها كانت مختومة بحياتهم. يشير الرسول بولس بكلام موحى به إلهياً في رسالته الأولى إلى تيموثاوس، إلى أن التبذير يقود المسيحي إلى الموت الروحي: "أَمَّا الْمُتَنَعِّمَةُ فَقَدْ مَاتَتْ وَهِيَ حَيَّةٌ" (١ تيموثاوس ٥:٦). كيف يمكن للمسيحي (سواء كان كاهناً أو علمانياً) أن يعيش ببذخ ورفاهية بينما إخواننا الآخرون جائعون ومشردون وينامون بالخارج في برد الشتاء؟

ولكن هناك أيضاً حجة مضادة للعلاقة بين الثروة والإيمان المسيحي. فالبعض، الذين أغراهم شغف الجشع، يهتمّون بإعطائه "لوناً مسيحياً". إنهم يعتبرون الثروة "نعمة إلهية لإيمانهم بالله"!

هذا هو المفهوم اليهودي الخاطئ، والذي انتقل أيضاً إلى التقوى البروتستانتية. لسوء الحظ، يتمتع النظام الاقتصادي البلوتوقراطي [البلوتوقراطية هي حكم الأثرياء] الحديث بالدعم "الروحي" من "المسيحية" الهرطوقية البروتستانتية. هذا دليل آخر على أن البدعة لا تسيء إلى العقيدة فحسب، بل تسيء أيضاً إلى روح الناس والمجتمعات وحياتهم. لذلك فإن كل أشكال المسيحية الخاطئة والمطبوعة، والتي تريد أن تُسمى "كنائس" لا تعجز عن تقديم الحل فحسب، بل تغّذي الشر البشري بدلاً من ذلك.

من الواضح أن آليات عمل ما يسمى بـ "السوق الحرة"، التي ابتكرتها الفرنجية الهمجية والهرطوقية، من خلال ما يسمى بـ "التنوير الأوروبي"، ليست مناسبة كشكل من أشكال المعاملات البشرية. على العكس، إنها تشبه سلوكيات الوحوش البرية المتعطشة للدماء. موت المرء هو حياة الآخر. أعطانا العَدَمِي الملحد جان بول سارتر مقياس تراجع الإنسان بعبارته التي يُضرب بها المثل "الآخر هو جحيمي"! أصبحت جثث المنافسين الاقتصاديين منطلقات لغزو الثروة. لأن الأقوياء من الناحية المالية يستطيعون ويتم فرضهم، فإن القوانين

تفضلهم هم بشكل عام وليس الضعفاء. على الرغم من مرور آلاف السنين على هروب الإنسان من الحالة البدائية السخيفة وزعمه أنه أصبح "متحضراً"، في مجال الإدارة الاقتصادية لثروة العالم، لكنه يظل هو نفسه البدائي والوحش الشره.

إذن ، هل هناك حل للأزمة المالية العالمية المتطورة والمتفاقمة؟ نعم هناك! إنها عيش تعاليم المسيح الأبدية في الإدارة والسلطة، والتي إذا طبقتها الأمم والشعوب على نطاق واسع، يمكن أن تغيّر الأرض من الجحيم إلى الجنة. يكمن حل جميع مشاكل العالم بتجربة الروحانية الأرثوذكسية في فضاء كنيستنا الأرثوذكسية.

من خلال هذا الإعلان القصير نؤكّد أنه ما دامت الشعوب والمجتمعات تقاوم الطابع الإلهي الإنساني للعالم، فإن المآزق لن تستمر فحسب، بل سوف تزداد أيضاً وستسقط البشرية في هاوية الدمار!

Source: I.M. Πειραιώς. Η παγκόσμια οικονομική κρίση από την σκοπιά της Ορθοδόξου χριστιανικής μας πίστεως. 20/12/22> https://www.vimaorthodoxias.gr/mitropoleis/i-m-peiraios-i-pagkosmia-oikonomiki-krisi-apo-tin-skopia-tis-orthodoxoy-christianikis-mas-pisteos/